الطفولة المشردة فى مصر

أهم وجه من وجوه الإصلاح الاجتماعى

بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعه

كتب الأستاذ بروس بلفن (Bruce Belvin) صاحب مجلة " الجمهورية الجديدة " الشهيرة مقالا فى شهر أبريل سنة ١٩٤٢ عن إهمال النوابغ الناشئين جاء فيه :

" هناك عقبة كأداء فى أن معظم الناس ، ولا سيما الأطفال والفتيان الناشئون، يعيشون فى أوساط و بيئات غير ملائمة لهم ، حتى لا نستطيع أن نتكهن بمقدراتهم ، وما قد يتاح لهم أو ما لا يتاح .

ونحن نعلم بالبحث العلمى أن هنالك ألوف العباقرة من الأحياء قد طمرهم الفقر والجهل والمرض فى مستنقعه ، فلم ولن تسنح لهم فرصة لإظهار كفايتهم ، وأول واجب علينا أن نرفع الأوحال والأوساخ والأنقاض التى غمرتهم وأغرقتهم وحرمتهم تمام النمو والازدهار، وهؤلاء الأحياء المغمورون المطمورون هم ثروتنا الراهنة و بضاعتنا الحاضرة ، وأى مجهود نبذله فى تحسين الحال غير مجد ولا مثمر ما لم ننقذهم ومثلنا فيه كمن يخبط فى الظلام الحالك تمثالا جميلا فلا ينتفع به أحد " .

تأمل هذا الكلام ! فهل ترى هذا الرأى المسند إلى عالم غربى يختلف عما نادى به المرحوم مصطفى كامل فى مصر عن الطفولة الفقيرة والمشردة فى أول هذا القرن ، فى جريدتى اللواء " والعالم الإسلامى " وفى خطبه المتعددة وهو قوله بنصه :

" اعلموا أيها المصريون أن فى أكواخ الفقراء ، وفى الأزقة والحارات، وتحت أقدام الفقر والجهل والحاجة الملحة والأمراض المضنية نوابغ كثيرين لا تعوزهم إلا المعونة المادية والعناية الأدبية ليخرجوا من تحت الركام والأنقاض ؛ ليضيئوا العالم بمصابيح ذكائهم . . فاعملوا على إخراجهم وتهيئتهم ليعودوا عليكم وعلى البلاد والعالم بأعظم المنافع ".

ولكن من ذا الذى استمع لقوله أو نفذ نصيحته، أو عمل بوصيته التى كررها فى مقالات وخطب عدة ؟ إننا بعد موته باثنتين وثلاثين سنة، أى جيل كامل، ما نزال نبحث فى الطفولة المشردة ونؤلف الجمعيات ، ونقيم الحفلات لننقذها من مصابها ونستشهد فى الأخذ بناصر هؤلاء الضعفاء بأقوال علماء أوروبا وأمريكا !

لقد قام الانجليز بضروب من الإصلاح والرعاية فأسسوا الملاجئ الفخمة والدور الفسيحة وزودوها بالمال الكثير ، و بعناية العلماء لجمع شتات الطفولة المشردة، ومن أهم مؤسساتهم

دار برناردو" التي ينفق عليها في العام مئات ألوف الجنيهات ، يعود بها الملايير والأغنياء بغير طبل ولا زمر ولا تهويش ولا تهريج في السر والخفاء. فان إدارة هذا الملجأ العظيم تنشر في أمهات الصحف ولا سيما جريدة التيمس إعلانا وجيزا هذا نصه : "بيت برناردو لرعاية الطفولة المشردة في حاجة إلى عشرين ألف جنيه" .

فلا تمضي أربع وعشرون ساعة حتى يغطى هذا القدر من المال بشيكات ضخمة يلح أصحابها على الإدارة أن تخفي أسماءهم ، فانهم لا يطلبون شهرة ولا ثناء من الخلق ولا إعلانا عن أنفسهم ، ولكنهم يريدون وجه الله! وهم يعلمون والجمهور يعلم أنما يدفعونه يصل حتما إلى أيد آمنة وذمم طاهرة وضمائر حية . فلا تمتد اليه يد غير التي تنفقه فيما دفع لأجله ، وما سمع الناس قط ، ولا علموا ، أن جمعية خيرية "الاسم" بددت أو اختلست ولا أمين صندوق سرق وهرب ، والبحث جار عنه ، للقبض عليه وتقديمه للمحاكمة ؛ ولا سمع ولا علم أن رئيس ملجأ أو دار للأطفال اغتنى عن طريق السلب والنهب ، ولا مدير ملجأ تواطأ مع المتعهدين ، ولا أطفالا ماتوا بالجملة بسبب الإهمال أو سوء العلاج .

ليس هذا وحسب ، بل إن "دار برناردو" وغيرها من دور البر بالأطفال يبعثون بهم بعد أن تشتد سواعدهم إلى كندا فيتعلمون صناعة أو زراعة و ينسون الشقاء ، و يعودون إلى وطنهم الأصيل رجالا ذوى أخلاق وكفايات فيكونون ربحا عظيما للأمة . و إن شاءوا البقاء في كندا أقطعتهم الحكومة أرضا يزرعونها أو أسست لهم مصانع ينتجون فيها ما يعود على بلادهم بالخير العميم .

و بلك ترى رجالا أمثال فورد الأمريكي يؤسسون مستعمرات للأولاد يتربون فيها على العلم والعمل والرجولة دون أن يقيدوا بشرط أو تعهد ، حتى اذا كبروا وظهرت مواهبهم التحقوا بأعمال كبيرة مجدية . وقد تخرج عشرات الألوف من الشباب في تلك المستعمرات الكريمة . وأسسوا مدنا ومصانع ومزارع لها ثروتها ولها فوائدها العميقة . فأنقذ الله بهذه الوسائل هؤلاء الأطفال أنفسهم وأنقذ المجتمع من الشرور التي كانت لا بد واقعة لو استمروا في شقوتهم وتشردهم . ونجا الوطن من الإجرام الفظيع الذي يفترفه الطفل الجائع والمريض والخاذل والحاقد على الإنسانية والمملوء القلب بالحسد الاجتماعي والمنطوية نفسه على البغض والكراهية والكفر بالأديان بسبب ما شهده في نفسه . دع عنك ما أصابه من المجتمع من الأمراض المعدية وفساد الأخلاق والتدهور الاجتماعي .

كل هذه الأعمال الجليلة قامت بها الجماعات والأفراد في هدوء وسكون بلا تهليل ولا تهويش ، ولا حفلات تدور فيها الخمور والمخاصرة والتهتك والبذخ والتبذير باسم الطفولة

المشردة ثم تنظر حولك فترى عشرات ألوف الأطفال فى عاصمة كالقاهرة يفترشون التراب ويلتحفون الهواء فى الصيف والشتاء ويسيرون فى الطرق فى "هلاهيل" وبعضهم لا يجد ما يستر به عورته ومعظمهم لم يذق طعاما منذ أيام وإن ذاقه فما يعثر عليه فى القمامات والفايات وأكوام الزبالة مما تعافه الحيوانات ومما يحمل سموما فتاكة وجراثيم قتالة، ثم تقرأ فى الصحف أن رصيد الجمعية الفلانية عشرات ألوف الجنيهات فى بنك كذا أو مصرف كيت راقدة راكدة على زعم صحة ما ينشر، فتسأل نفسك: ما فائدة إيداعها البنوك وبطون هؤلاء الذين جمعت باسمهم خاوية وأجسامهم ضامرة ذاوية وعقولهم من التعليم خالية؟ هل هو حلم أو حقيقة؟ وهل هذا خيال أم حيلة!

إن ما رأيته من أحوال هؤلاء الأطفال منذ ثلاثين عاما ما أزال أراه إلى الآن وقد زاد عددهم وانتشرت أوبئتهم وامتلأت بهم الميادين والشوارع والأزقة. ولا شك أن الذين رأيتهم منذ ثلاثين عاما وما زالوا على قيد الحياة قد ملأوا السجون وشغلوا المحاكم والشرطة بما اقترفوه — معذورين ومدفوعين — من الجنايات والجرائم.

أين هذا مما يبذلونه فى أمريكا لرعاية هؤلاء الأطفال وتنشئتهم؟

كتب كارل ديتزر فى مجلة مركورى إن عصابة تألفت فى الصيف الماضى من الأطفال وبدأوا يعيثون فى الأرض والحقول فسادا، فلم يرسل فى أثرهم رجال الشرطة، بل فتاة من البوليس النسائى خالطتهم وامتزجت بهم ودرستهم على مهل ثم أرضت كل طفل منهم بما كان يجول فى خاطره، ثم عرضت عليهم الالتحاق بمدرسة فأقبلوا عليها بسرور وفرح وقامت إدارة "البر المنظم" بنفقاتهم فاكتسبهم المجتمع باللين والرفق ولم يطارحوا فى إصلاحية الأحداث ليلقوا عذابا أو جلدا أو فساد أخلاق ويتلقوا دروس الإجرام فى ظل حكومة غربية منورة ولم يحدث قبض ولا سجن ولا محاكمة ولا صحيفة سوابق ولا انتقام اجتماعى من السلطة الحاكمة.

وسارت فتاة الشرطة ويسمونها ladies of the law فى حى سيء الشهرة فرأت سربا من الكسالى "والنابلة" يتفرجون على طفل يلعب على الكنجة، ليرقص كلبا على الإفريز فأخذت الطفل والكلب إلى إدارة البروسيل الطفل وعمره تسع سنوات عن سبب وقفه وترقيص الكلب. فأجاب بأنه إنما يفعل هذا ليعول أمه ورجلا اسمه "العم جيم" يعاشرها، وأن العم جيم هذا يضربه إذا لم يعد إلى الدار بمبلغ معين من المال. فأخذت الفتاة الطفل والكلب ليدلها على بيت أمه والعم جيم، وقد تبعها ضابط المباحث فى سيارة فلما وقفت بباب المرأة عرض عليها الضابط معونته ولكنه لم يتدخل ولم يظهر نفسه. وإن كان أخى

سكر ظاهر فأظهرا العداء والمقاومة "لفتاة الشرطة" ولكنها لا يتهما حتى خضعا لأمرها .

و إذا فر طفل من بيت أهله أو طرده أقاربه فأن الفتاة المختصة تبحث عنه حتى تهتدى اليه و تفحص حالته ثم ترده أو تنقله إلى ماجأ يصلح من شأنه و يعيده إلى المجتمع رجلا أو امرأة صالحين للحياة .

وفى أحد المساكن وجدت فتاة الشرطة ثلاثة أطفال تركهم والداهم ليذهبا إلى الصور المتحركة وأثناء وحدة الأطفال بتر أحدهم وعمره ثلاث سنوات أصبعين من أصابع قدمه بسقوط مرآة مكسورة عليها فنقلته الفتاة الى المستشفى وأسعفته بعملية جراحية سريعة، وقد أظهر تحقيق هذه الحالة أن الوالدين مدمنان على الخمر ولا يصلحان لتربية الأطفال. فسقطت حقوق حضانتهما ونقل الأطفال إلى حيث يعنى بهم .

وفى الساعة العاشرة ليلا وجدت فى حانة طفلة لا تتجاوز الرابعة عشرة، وتزعم أنها بنت ٢١ عاما (أى بالغة رشدها) تجالس وتعاقر رجلا فى الأربعين، ففحصت فتاة البوليس يديها (لتعرف سنها بالتقريب) ثم أخرجتها من الحانة وحققت معها فظهر أن سنها ١٤ سنة وأن الرجل ابن أربعين وأنه متزوج، وقد عاشت الفتاة والرجل عيشة الزوجين قبل ذلك ، فنقلت الفتاة إلى الملجأ والمستشفى وزج الرجل فى أعماق السجن ليلقى عقابه .

و يوجد فى الحدائق العامة أطفال نائمون جائعون و بعضهم عرضة لهجوم جناة الأخلاق، فينقذ الأطفال و ينظر فى شؤونهم بحيث لا يعودون إلى ما كانوا فيه من الضلال أو الشقاء.

و إذن نحن نرى فى عواصم الغرب بعض آثار الشقاء ولكنا نجد العلاج القوى المناسب فى زمانه ومكانه تتولاه عقول رشيدة ونفوس كريمة وأياد ناعمة .

فهل فكر أولياء الأمور فى مصر فى وضع نظام مماثل وهو لا يحتاج إلى تشريع خاص ولكن يحتاج إلى حسن تطبيق القوانين واختيار القادرين على هذا الإنقاذ الشريف الجميل. إن الوقاية خير من العلاج ونحن لا نعرف الوقاية ونسىء استعمال العلاج دائما .

نقد كتب أحد مشاهير الأدباء يصف منظرا داميا فاجعا من مناظر الطفولة المشردة على عتبة وقد نام الأخ وأخته يفترشان التراب والأرض الباردة و يلتحفان جوا شديد الرطوبة ، فكان الطفل ملتفا فى ثوبه الممزق كأنه بدن ممزق قد بترت أعضاؤه وتراكمت ومال رأسه على وجهه ، أما البنت فكانت من الضعف والتداعى والنحافة بحيث تبدو ... لا حقيقة ، وخيالا لا مثالا ، وهى تنام كأنها ميتة ، لا تنوم الراحة

بعد التعب ، ولا نومة المرض بعد الصحة ، ولا التفاهة بعد المرض ؛ بل نومة القنوط القاتل ، فاذا تأمل العابر هذين الجسدين وهذين الوجهين فذكر أن الأول مخلوق ليكون رجلا يكافح فى الحياة ويجاهد ويجالد فى سبيل الوطن وله قلب يؤمن بالله وعقل يعى المعلومات وفؤاد يفقه الخير والشر ونفس ملآنة بالعواطف والآمال ، وأن الثانية شابة جعلت لتكون شابة وامرأة وزوجة وأما تحمل وتلد وترضع وتربى رجالا ونساء للانسانية وللأقدار ، أدركت العابر عبرة ، ثم رهبة ، وغمره انفعال شديد وتفكير طويل ، فإن كان هذا نصيبهما فى طفولتهما فماذا أعدت لهما الحياة فى مراهقتهما ونموهما .

وقد رأيت فى ميدان باب الحديد فى حديقة مستديرة هناك ، صارت الآن مخبأ ، طفلا جميلا باهر الجمال ممزق الثياب قذر اليدين والرجلين نائما فى بهرة النور فوقفت أتأمله وأسأل نفسى : لم اختار النور الباهر ينصب على عينيه فيزعج نومه ؟ فقال لى رجل : إنهم يختارون النوم فى النور لئلا يعتدى عليهم أحد من "أولاد الحرام" لو ناموا فى الظلام الحالك فسألته : واذا أطفئت الأنوار ؟ قال : يشرق عليهم ضوء القمر !

وانجلتاه لو أشرق القمر على هذه الوجوه والأجسام ، وقد كان القمر فى ذهنى دائما قرين الجمال والسعادة والمناجاة والحلوة الهنيئة ، أما الآن فقد صار فى نظرى مطلعا على مخزيات الإنسان وفضائحه ، ولو كان القمر مأهولا بساكنيه ورأى أحدهم هذه الصورة الفاجعة فماذا يقول سكان القمر عن الأرض ؟ أنهم يسمونها جهنم !

* * *

هذه صورة لا نصيب للأخيلة فيها ، ولا فضل للفن على أسطرها ، ولا دخل لبراعة الوصف فى حقيقتها ، بل هى صورة من الحقيقة التى أراها متكررة ويراها كل من يجوس خلال الطرق وله قلب وشعور وله عاطفة إشفاق على فريق من أبناء هذه الأمة ، وهذه الصورة تنادى : البدار ! البدار قبل أن تفر الفرصة ويضيع الرجاء .

محمد لطفى جمعة